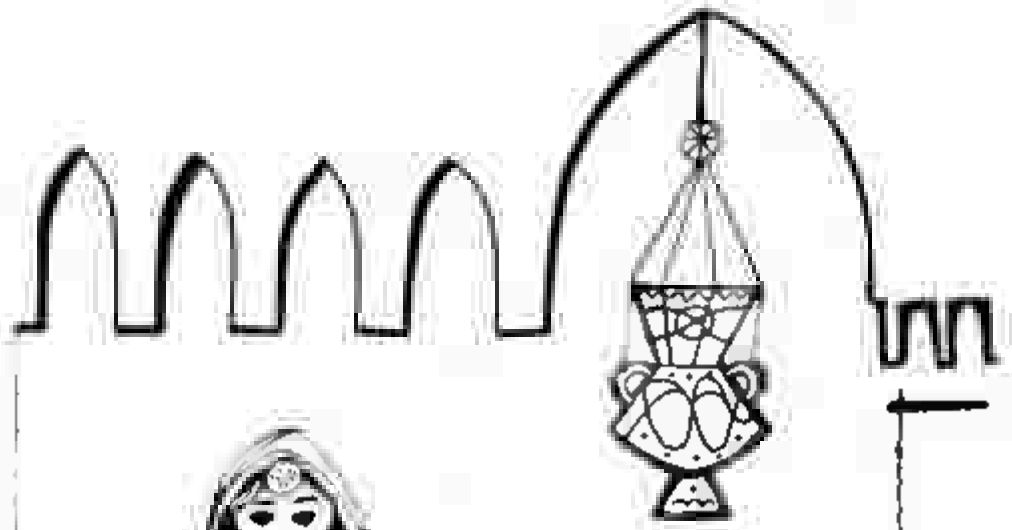

الفارس الجميل

بقلم : علي أحمد باكثير

وردت الانباء من الشام بأن عبد الملك ابن مروان ارسل البعوث والسرايا ليكونوا طلائعه فى غزو العراق وانه قد اعد لذلك جيشا هائلا وصمم على الا يعود الى الشام فى هذه المرة الا بعد ان يفتح العراق . فلم يكد مصعب يصدق ما سمع ، اذ كان يعتقد دائما ان عبد الملك لا يمكن ان يكون جادا فى قتاله هو . فطالما ركب اليه من قبل بجيشه وهو يعلن انه سيغزو العراق ويقاتل مصعب بن الزبير ، فاذا هو يعير على بعض الخوارج فى طريقه ثم لا يلبث ان يكر راجعا الى الشام معتذرا بأن الشتاء برده ووحله قد حال دون مواصلة السير الى مصعب .

وكذلك كان مصعب يفعل اذ يتوجه بجيشه نحو الشام للقاء عبد الملك فى الطريق فلا يلبث ان يعود قافلا الى العراق حين يبلغه ان عبد الملك قد كر راجعا الى الشام .

ولكن ابراهيم بن الاشتر كتب اليه من الكوفة يؤكد له عزم عبد الملك ، ويعلمه انه ان بعض رجاله قد تسللوا الى الكوفة ليدعوا أهلها اليه ، وانه قبض على نفر منهم فاستنطقهم فاقروا له فلم يبق عند مصعب شك فى ان الأمر جد .

واراد أن يستقدم المهلب بن ابى صفرة ، وكان يقاتل الخوارج بفارس ، ليكون معه فى حرب الشام ، ولكن أهل البصرة ابوا عليه ذلك وقالوا له :

ـ لا نسير معك وندع البصرة هدفا للخوارج وقد علموا سوق الاهواز ، ما لم نترك المهلب يقاتلهم دوننا ، فاننا لا نامن أن ينقضوا على البصرة اذا رأونا قد تركناها معك .

فانصاع مصعب لرأيهم .

ولما اعتزم المسير الى الكوفة اشارت سكينة بنت الحسين على أن تصحبه حتى تكون الى جانبه وهو يقاتل عبد الملك .

قال لها :

ـ انى اشفق عليك يا سكين من مشاق الطريق واهوال القتال .

قالت له :

ـ لا عليك يا مصعب منى فانى انتظرت هذا اليوم من زمن طويل ، وعسى ان تهزم هذا المروانى فسير الى الشام وتملكها مكانه .

ولم يشأ مصعب ان يقول لها انه انما يسير للقائه مكرها ، وانه لو استطاع ان يتجنب قتاله لفعل ، وان أمله فى الانتصار عليه اذا حاربه قليل ، فقد احس أن أهل العراق لن يقاتلوا معه باخلاص ونية منذ ساء رأيهم فى اخيه عبد الله بن الزبير . فلو قال لها شيئا من ذلك لطفقت تلومه وتعنفه على ما اضاع من الفرصة من قبل اذ لم يستمع لرأيها فى الاستقلال عنه من عهد بعيد .

ولكنه اجتهد ان يصرفها عن المسير معه بشتى الأسباب ما خلا السبب الصحيح وهو قلة رجاله فى النصر واشفاقه عليها مما قد يمسها من عواقب الهزيمة .

فلما أصرت على رغبتها فى المسير معه لم يسعه الا ان يوافق .

وكان الاحنف بن قيس فى طليعة الرجال الذين قدموا معه من البصرة، ولكنه كان مريضا فما لبث ان اشتد به المرض وثقلت عليه العلة فارسل الى مصعب فعاده فوجده يجود بنفسه . ـ

ـ يؤسفنى والله يا مصعب أن تحدثنى كما ترى وان تحول هذه العلة دون ما أبغى من الخروج معك ونصرتك .

ـ لا بأس يا أبا بحر فانى لن أخرج الا بعد أن تقوم من علتك ان شاء الله .

ـ هيهات يا مصعب فما أراها الا النهاية .

فبكى مصعب وهو يقول

ـ نفسى عداؤك يا أبا بحر ـ

ـ كفكف دموعك يا ابن أخى واصغ الى ما اقول فقد أوشك أن يغيض لسانى فلا أستطيع الكلام .

ارسل الى المهلب ليكون ظهيرا لك فى هذا الوجه .

ـ قد علمت رأى هؤلاء فى ذلك .

ـ ارسل اليه ولا تبال بهم فانى لا اثق بهؤلاء ولا آمن ان يغدروا بك اذا حمى الوطيس .

ـ انى أخشى من الخوارج على البصرة .

ـ امر الخوارج أهون من أمر عبد الملك فان علمته كان يسيرا عليك ان تخرجهم من البصرة بعد ذلك . أما ان علمك ..

وثقل لسان الاحنف فلم يستطع ان يتم كلمته .

وحزن مصعب لموت صديقه الاحنف حزنا شديدا ، فقد كان امين سره والملجأ الذى يلجأ اليه كلما حز به أمر عظيم ، او وقع فى مشكلة لا يدرى وجه الرأى فيها ، فيجد عنده ما يشاء من حل سليم وتوجيه حكيم .

وتشاءم من موته فى تلك الغزة الحرجة وذلك الوقت العصيب وهو يتجهز لقتال اهل الشام وقد قلت ثقته باشياعه من اهل العراق منذ كان من سوء معاملة أخيه عبد الملك لهم فى الحجاز ما كان .

وهم أن يعمل بوصيته فى استخدام المهلب بن أبى صفرة ولكنه أشفق ان يثير ذلك قائمة اهل العراق عليه وليس لديه من يشد أزره عليهم ويعينه فى اخضاعهم لأمره بعد ان مات ذو الكلمة المسموعة بينهم والرأى المطاع .

* * *

وقضى مصعب بعد موت صديقه الاحنف أياما وليالى وهو فى بحران من الهم لا يستطيع له دفعا ولا يجد منه خلاصا . واستبدت به الحيرة فلا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، وتردد فى كل شىء فلم يستطع ان يعقد عزمه على شىء ، حتى لقد نازعته نفسه ان يعدل عن المسير لقتال عبد الملك ويعلن ذلك للناس .

لقد ايقن ان امر اخيه عبد الله بن الزبير الى ادبار ، وان نجم عبد الملك بن مروان الى سطوع ، وان قصارى ما يستطيع عمله هو اذا ما خرج لقتال عبد الملك وانتصر عليه ان يؤجل هذه النهاية الى حين ، ولكنها آتية لا ريب فيها ان عاجلا او آجلا ، فماذا يدفعه الى القتال فى سبيل قضية خاسرة ؟

ولكن هل يستطيع حقا أن يتراجع عن المسير لقتال عبد الملك ؟ وماذا يكون موقفه من أخيه وموقف أخيه منه ؟ ثم ماذا يكون من أمر عبد الملك نفسه ؟ ايرتد قافلا الى الشام اذا بلغه عدول مصعب عن لقائه وذلك بعيد ، أم يمضى قدما حتى يقرع عليه ابواب العراق ؟ واذا فماذا يفيد تراجع مصعب ان فعل؟

لقد فقد مصعب كل أمل الا أملا واحدا يتراءى له من بعيد .. أملا يكتنفه الشك من كل جانب ، ولا يجرؤ مصعب ان يحدث به أحدا ، لان أحدا لا يمكن أن يقتنع به ، بل ربما سخر منه اذا سمع به ، وان مصعبا نفسه لقليل الثقة فى امكان أن يتحقق ، فقد جعلته الايام سيء الظن بالناس قليل الايمان بأن فيهم بعد من يلتزم قواعد المروءة والشهامة كما يلتزمها هو ، ويراها قطعة من نفسه وجزءا من تكوينه . وانه ليقلب فكره فى الناس من قريب وبعيد وبين كثير وصغير فلا يجد هذه الشمائل فى أحد منهم بالصورة التى يجدها فى نفسه بحيث يستطيع أن يتعامل معه على كلمة سواء اللهم الا أن يكون ابراهيم بن الاشتر .

ولكن هذا الأمل هو الأمل الوحيد الذى بقى أمامه فعليه أن يبلوه ليرى ما يكون من أمره . وان يغلب حسن ظنه بنفسه على سوء ظنه بالناس . واستدعى مصعب ابراهيم بن الاشتر فلما خلا به قال له :

ـ اتدرى يا ابراهيم لماذا دعوتك اليه ؟

ـ لخير ان شاء الله .

ـ أجل لأرى رأيك فى أمر رجوت أن يجعل الله لنا فيه مخرجا مما نحن فيه .

ـ وماذاك يا مصعب ؟

ـ أحدثك قد حدثتك ذات مرة بما كان بينى وبين عبد الملك بن مروان من صداقة قديمة وود متين .

ـ نعم .

واسررت اليك ايضا اننا طالما برهة يتقى احدنا حرب الآخر ، فكان يخرج لقتاله ثم يكر راجعا من نصف الطريق .

ـ نعم نعم ولكنه فى هذه المرة لن يرجع يا مصعب عن قتالنا حتى يفتح العراق او يفتح نحن الشام أوتشك بعد فى ذلك يا مصعب ؟

ـ كلا يا ابراهيم ما اشك فى ذلك ، ولكن سنح ببالى ان لو عهدت اليه سرا دون أن يعلم أحد بمذهبى ، حتى أصل اليه فى بعض الطريق ، فارعم لرجاله انى رسول مصعب بن الزبير اليه ، فاذا خلوت به كلمته وناشدته ان يرجع من حيث جاء فيحقن بذلك دماء المسلمين ان تراق فى غير طائل .

ـ ويحك يا مصعب أوتظن ان ابن مروان يستجيب لك ؟

ـ قد يستجيب فانه ـ ما علمت ـ لرجل خير .

ـ كلا يا مصعب ان عبد الملك الذى كنت تصرفه فيما مضى غير عبد الملك اليوم .. ان الذى كان يدعوه الناس حمامة المسجد قد انقلب اليوم الى كبش بنى مروان .. كبش نطاح وايم الله يا مصعب !

— اعلم ذلك يا ابراهيم ولكنه لي بشيء ما ليس من الود القديم .

— اتدري يا مصعب ما آفتك ؟ آفتك انك تقيس غيرك بمقياس نفسك.

— وايأس في ان اجرب هذا السبيل معه ؟ ان لم يقبل استعنت الله عليه فقاتلته وقد أعذرت .

— خبرني يا مصعب اتشفق منه عليك ام تشفق منك عليه ؟

— اشفق على الخلة التي بيننا ان تقضي عليها حرب لا طائل فيها لأحد .

— لعلك يا مصعب لم تعد ترى احاك احق بالخلافة من عبد الملك ؟

— بلى ان اخي لاحق بها منه .

— مهما يكن رايك في اخيك فان عبد الملك يرى نفسه احق بالخلافة من اخيك ، فلن يضيع فرصة تتيح له العلة عليه من اصل صداقة قديمة بينك وبينه او ود متين .

— اذن يكون لي معه شأن آخر .

— لعلك تعود اليه من عنده فتخرج به لقتاله ؟

— نعم .

— من اين لك انه لا يغدر بك فيبقيك اسيرا عنده ؟

— كلا يا ابراهيم لن يغدر بي عبد الملك .

— ماذا يمنعه ؟ لقد غدر بابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق .

— لكنه لن يغدر بي أبدا . ولست لا يستجيب لما أدعوه اليه ولكنه لن يغدر بي أبدا . محال أن يصنع بي ذلك

— محال ؟

— ويلك ما خطبك يا ابن الأشتر . كنت أحسب انك تعلم من شرع المروءة اكثر من هذا

— ما شأن مروءتي في هذا الأمر ؟

— هب انك كنت مكان عبد الملك أمكنت تغدر بي على هذه الصورة ؟

— بربك لا تقيسني بعبد الملك فشتان ما بيني وبينه .

— معذرة يا ابراهيم . حقا انك لافضل منه واعظم مروءة ولكنه هو ايضا لا يمكن ان يتحدر الى هذا الدرك

— ماذا يحملك على ان تتجشم اليه الطريق بنفسك ؟ ابعث اليه بكتاب منك او ابعث اليه رسولا يشافهه بما تريد

— كلا يا ابن الأشتر لن يكون ذلك مثل حضوري بنفسي اليه .

— والله يا مصعب لولا ما اعلمه على سرك لكتبت الى اخيك عبد الله بشأنك هذه مع عدوه ليخلعك ويولي غيرك مكانك .

— حاشاك يا ابراهيم ان تفعل ذلك.

وطار الحوار بينهما على غير اتفاق، وادرك ابن الأشتر ألا سبيل الى اقناع مصعب بالعدول عن عزمه ، فتركه وما اختار لنفسه دون ان يجد عليه في ذلك ، بل احس براءة له وشفقة عليه واكبار لهذه الشمائل فيه التي يندر وجودها في الناس وهي بعد غير عزيزة على نفسه .

— اما اذ صممت على ذلك فدعني ارافقك اليه لعلك تحتاج الي .

— كلا يا ابراهيم بل ابق انت هنا مكاني حتى اعود من عنده وقد هيأت انت الناس للمسير .

— اذن فاحرص على سرك هذا لا تفشه لاحد ولا لاهلك ، وسأزعم للناس انك انطلقت الى جهة الأهواز لتتفقد مواقع المهلب بن ابي صفرة مع الخوارج حتى تأمن جانبهم قبل ان تمضي لقتال عبد الملك .

وسر مصعب من رايه هذا عاجله وقبل ما بين عينيه وهو يقول :

ـ انت اند يا ابراهيم وامي ـ والله لا ادري ماذا كنت اصنع لو لم يؤيدني الله بك .

ولما دخل مصعب على سكينة واخبرها بعزمه على زيارة الاهواز انكرت عليه ذلك بشدة وقالت :

ـ كيف تترك عدوك الاكبر يطوي القفار اليك وتمضي لتعقد حرب الجوارح ؟

ـ لاطمئن على موقف المهلب هناك فامضي للقاء عبد الملك دون ان يشغلني عنه شاغل فطفقت تناقشه في ذلك نقاشا طويلا حتى هم ان يخبرها بحقيقة عزمه لو لم يتذكر ما اتفق عليه مع صديقه ابن الاشتر .

* * *

وتسلل مصعب ذات ليلة فخرج من مدينة الكوفة سرا دون ان يعلم بمسيره احد ، ولم يكن معه غير ابن الاشتر الذي انطلق معه فرافقه مسافة في الطريق لا يريد ان يتركه الى ان عزم عليه مصعب ان يعود فودعه وكر راجعا الى الكوفة حيث دخلها قبيل الفجر .

وانطلق مصعب على جواده الاشهب يطوي القفار طيا ، لا يلوي على شيء ويواصل الليل بالنهار ، لا ينزل عن جواده الا ريثما يريحه قليلا فيعلفه ويسقيه ، ثم يستأنف السير حتى قطع في خمسة ايام ما يقطع عادة في اثني عشر يوما .

ولم يطمئن من مسيره الا حينما لمح النيران تضيء من بعيد على مساحة كبيرة من الارض ، فادرك انها نيران جيش الشام قد عسكر في ذلك المكان . فمس الصعداء وقال : الليلة التي خلي عبد الملك !

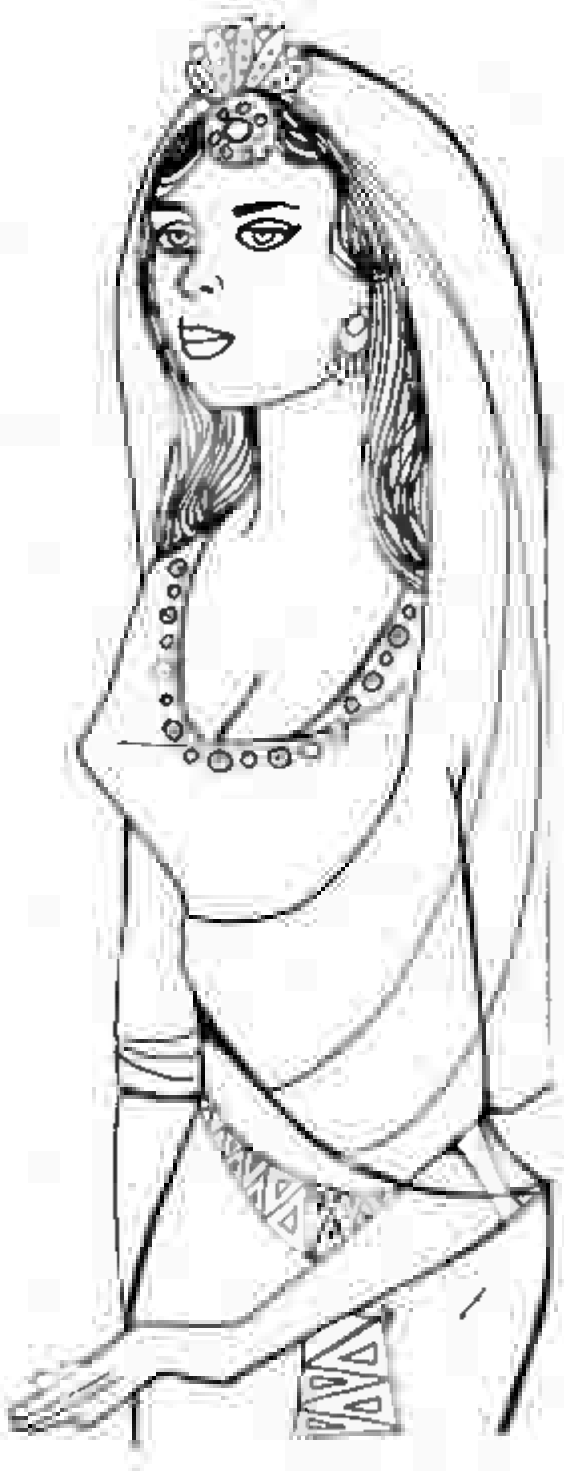

وحقق عليه لقرب لقاء صديقه القديم ، وطفق يستعيد ذكريات صباه معه ، واخذت مدينة الرسول تتمثل في ذهنه حيث كانا يلعبان في دروبها صبيين صغيرين ، ويتسابقان على جواديهما في ضواحيها يافعين ، ولم يقطع عليه حبل ذكرياته الا فارسان من طلائع جيش الشام قد برزا له من عرض الطريق كانما انشقت عنهما الارض فالقى عليهما التحية فردا عليه .

ـ من الفارس ؟

ـ رسول من مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ اين الرسالة ؟

ـ امرت ان اسلمها الى اميركم يدا بيد .

فاخذا يتفرسان في وجهه في ضوء القمر ثم نظر احدهما الى الآخر كانما يتشاوران في أمره .

ـ هل لكما ان توصلاني الى اميركم ؟

ـ نعم هلم معنا .

فعطفا جواديهما وسارا معه احدهما عن يمينه والآخر عن يساره . وما لبث الثلاثة ان انضم اليهم عدد كبير من الفرسان فاحاطوا به من كل جانب . وكلما اقتربوا من المعسكر رادت نيرانه لمانا ، فظهرت على ضوئها الخيام العديدة المنصوبة على ذلك السهل الواسع . فايقن مصعب صدق ما بلغه من ان عبد الملك قد صمم هذه المرة على الا يرتد عن العراق حتى يفتحه .

ولما بلغوا اول المعسكر ترجلوا عن جيادهم ، فترجل مصعب مثلهم ، ودنا مصعب من كبيرهم فاسر اليه ان الرسالة سرية وان اميرهم عبد الملك بن مروان ربما لا يريد ان يذيع امرها في رجال المعسكر فاومأ براسه موافقا والتفت الى احد رجاله قائلا :

ـ خذ جواد هذا الرسول فاحفظه عندك حتى يطلبه منك .

واخذ يد مصعب فمشى به بين الخيام ، فراى اكثر الجنود فيها قد آووا الى مضاجعهم ليناموا ، وبقي قليل منهم بين قائم او قاعد يهيىء فراشه للنوم ، الى ان بلغ به خيمة حمراء فخمة بين خيمتين كبيرتين ادرك من هيئتها وروائها انها لعبد الملك وحاشيته . فوقف به امام احدى الخيمتين ، فاذا رجل ربعة احمر اللون يخرج منها ليستقبله كانما كان على ميعاد معه ، فعرفه مصعب من اول وهلة . انه محمد بن مروان أخو عبد الملك فلما سلم عليه مصعب دهش الرجل فوضع يده في مقبض سيفه .

ـ لا ترع انا رسول مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ بل انت مصعب بن الزبير .. لا تحاول ان تخدعني فقد عرفتك .

ـ لا خداع يا محمد . انا مصعب وانا رسول مصعب .

ـ مرحبا بك يا ابن الزبير .. ادخل .

ودخلا الخيمة فاذا فيها رجلان آخران كانا قاعدين فنهضا لما راياه .

ـ هلم يا خالد . هلم يا عبد الله هذا مصعب بن الزبير .

فدهشا قليلا ثم اقبلا يصافحانه ومحمد بن مروان يقدمهما اليه .

ـ هذا خالد بن يزيد بن معاوية وهذا عبد الله بن يزيد بن معاوية .

ـ وحمل محمد وخالد يرحبان به ويوسعان له في المجلس . أما عبد الله فقد ظل صامتا ينظر اليه نظرة فيها مكر وغدر ثم استاذن وخرج .

ـ اين عبد الملك فاني في شوق اليه؟

ـ هـلا قلت اين امير المؤمنين يا مصعب ؟

ـ كلا يا محمد ان امير المؤمنين في مكة .

ـ كذبت بل هو هنا في الخيمة المجاورة .

فتبسم مصعب وهو يقول :

ـ هلا اخبرتموه بمجيئي ؟

ـ قد علم امير المؤمنين بمجيئك .

ـ اتظن انه هو الذي نعني ؟ لا والله لقد حضرت دون علم منه !

ـ انا اعني امير المؤمنين اخي .

ـ وانا اعني امير المؤمنين الصحيح .

قال خالد وهو يضحك مما يسمع كأنه مسرور بذلك :

ـ لا تلاحيا .. لكل منا امير المؤمنين .

وارتفع صوت آخر من جهة باب الخيمة يقول :

ـ مهلا يا خالد .. ليس للمسلمين غير امير واحد .

ـ هو الذي في مكة .

ـ بل هو الذي بين يديك يا مصعب !

واذا صاحب الصوت هو عبد الملك ابن مروان قد دخل في عباءة من الخز الفاخر وخلفه عبد الله بن يزيد . فوقف عبد الملك باسطا يديه كأنه يدعو مصعبا الى عناقه ، فوثب مصعب اليه فتعانقا طويلا لا يكاد ينقطع حتى يعود اليه من جديد ، في صورة أصدق وأشد حرارة ، حتى شعر الثلاثة الآخرون بشيء من الحرج أن يروا هذا المشهد أمامهم دون أن يدروا ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا . واحسوا كذلك بضآلة شأنهم ازاء هذا الموقف الفريد الذي لم يخطر لهم على بال ، ولم يستطيعوا له فهما ولا تفسيرا . وقد ضاعف شعورهم هذا ما بدا من عبد الملك من تناسيهم وتجاهلهم جملة واحدة حتى كأنما كانوا غير موجودين هناك .

وما تخلصوا من هذا الحرج الا حينما اومأ اليهم عبد الملك بالخروج من الخيمة وتركهما وحدهما . فقالوا خارجين الا ما كان من عبد الله بن يزيد ، فقد ظل ظلا كأنه غير مطمئن الى انفرادهما في الخيمة ، حتى نظر اليه عبد الملك نظرة قاسية لم يسعه بعدها الا أن ينسحب .

قال مصعب :

ـ احسب هذا الفتى يخشى مني عليك .

قال عبد الملك :

ـ اجل انه لا يعرف ما بيني وبينك يا مصعب .

ولم يكد يتم كلمته حتى عاد عبد الله ابن يزيد ثانيا فصاح عبد الملك في وجهه :

ـ ويلك يا ابن اخي . ماذا تريد ؟ الم اصرفك من عندي الساعة ؟

فتمتم عبد الله قائلا :

ـ انه يتقلد سيفه يا امير المؤمنين فهلا اذنت لي ان آخذه منه ؟

فصاح به عبد الملك :

ـ بل دعه ويلك ما انت وذاك ؟

وهم مصعب ان يلقي بسيفه اليه فمنعه عبد الملك قائلا :

ـ دع عنك هذا يا مصعب ، والله لو غدر بي الناس جميعا ما غدرت بي انت .

وخرج عبد الله بن يزيد ، فنظر احدهما الى الآخر وانفجرا يضحكان .

— هلم نا نجلس يا مصعب ونتحدث فانى فى شوق اليك والى حديثك .

— هل دار بخلدك قط يا عبد الملك انى سأجىء هكذا وحدى اليك ؟

— نعم توقعت ان تلقانى ولكن فى غير هذا المكان ، الا ان تكون قد خرجت بجيشك من الكوفة فهو فى بعض الطريق وسبقته الى ؟

— لا والله يا عبد الملك ، ما زال حبيبى بالكوفة وانما جئت اليك وحدى دون ان يعلم بمسيرى أحد .

— اما هذا فلم يخطر على بالى ، وانه لعمل لا يأتى مثله غير رجل واحد فى العرب هو أنت .

فضحك مصعب وهو يقول :

— واحسبنى الا يقدره حق قدره غير رجل واحد فى العرب هو عبد الملك بن مروان .

واستضحك عبد الملك قليلا وهو يقول :

— صدقت يا مصعب .

ثم لم يلبث ان اطرق واجما .

وران عليهما صمت عريب ، وأخذ مصعب فى اثناء ذلك ينظر الى عبد الملك كأنه يريد أن يستشف ما يعتمل فى نفسه .

— ما خطبك يا عبد الملك ماذا يدور الآن فى فكرك ؟ نجيبك عليك الا ما أخبرتنى .

فتنهد عبد الملك وهو يقول :

— لقد الم بى خاطر سوء .

— قالت لك نفسك الأمارة : هذا قد جاء وحده دون ان يعلم احد من قومه فلو ...

واستدرك عبد الملك قائلا :

ـ أجل هو ذاك ولكن حاشا لله يا مصعب لا ينبغي أن أحيب أملك في صديقك القديم .

وضحك الاثنان وصفا ما بينهما مرة أخرى .

قال مصعب :

ـ أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك أن تضطر لمحاربتي واضطر لمحاربتك ؟

ـ بلى والله ولكن الملك عقيم .

ـ افلا نبرم بيننا عهدا الا يقاتل احدنا الآخر ما حييا ابدا ؟

ـ قد علمت يا مصعب اني لست اقاتلك على شيء ، وانما اقاتل عبد الله اخاك .

ـ بل تقاتلني اذ تقاتل اخي .

ـ اخلع اخاك واعلن نفسك مكانه فستجدني اكف عنك واقاتله معك .

ـ معاذ الله ان افعل ما ليس لي بحق .

ـ انت احق والله بهذا الامر منه .

ـ ومنك ؟

ـ لا بل تفضلني في اشياء وافضلك في اشياء . ولكنا سنبرم بيننا حينئذ العهد الذي اقترحت .

ـ هيهات انك لتعلم ان عبد الله بن الزبير افضل مني ومنك .

ـ باي شيء يفضلني ؟

ـ ابوه الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو افضل من ابيك مروان بن الحكم ، وامه اسماء بنت ابي بكر الصديق ، وهي افضل من امي وامنك ، وهو اول مولود ولد للمسلمين في المدينة عقب الهجرة .

ـ كل هذا حق ولكنه هو لا يفضلني

ـ بل هو اتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديما حتى لقبوك حمامة المسجد ولكنك ما لبثت ان شغلك الملك عن صلاتك وفقهك . اما عبد الله اخي فلم يشغله شيء عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .

ـ ولكنه بخيل والبخيل لا يسود ابدا .

ـ لو شاء ان يكرم على اصحابه وانصاره بما في بيت مال المسلمين لفعل ، ولكنه اتقى الله من ذلك .

ـ الا تعلم يا مصعب انه بغيض الى الناس وانني احب اليهم منه ؟

ـ الناس لا يبغضونه وانما يبغضون الحق ، وهم لا يحبونك انت وانما يحبون المال الذي تنثره في صفائرهم .

وسكت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـ ان كان عبد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت انا انازعه هذا الامر بغير حق ، فلم عرضت علي ان نوادع؟

ـ انما عرضت ذلك ابقاء على الود الذي بيني وبينك .

ـ الود اثر عندك من الحق ؟

ـ نعم .. اوليس كذلك عندك ؟

ـ لا ادري والله ايهما اختار لو خيرت . ولكن الله لم يخوجني الى ذلك ، اذ كان في مقدوري لو وافقت انت ، ان اجمع الحق والود في ناحية واحدة .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني ما قلته لك من قبل ان تعلمه وتعلن الامر لنفسك فاقاتله هو ولا اقاتلك .

ـ بل اردت يا عدو ان تتعدى به ثم تتعنى بي ؟

ـ لا والذي عقد بيننا هذه الحلة لا اتعرض لك حينئذ ابدا .

ـ وأنا والله لا أحزن أخي أبدا .

وصمت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـ ان كنت تراها خيرة عليك فعندي ما هو أفضل لك من ذلك .. اعزل ولاية أخيك واقسم عندي بالشام وسأقطعك بها ما تشاء من أرض تعيش فيها عيشة رغدا مع أولادك وعيالك فاستشاط مصعب غضبا

ـ ويلك لقد ساومتني على الدنيئة يا عبد الملك . أمثلي تقول هذا القول ؟ آه لو غيرك قالها !

فطفق عبد الملك يهدىء غضبه ويلاطفه ويعتذر له .

ـ سامحني يا مصعب فوالله ما أردت أن أغضبك . ماذا أصنع ؟ أنت الذي دعوتني الى أمر نصعب تحقيقه فأردت أن التمس له سبيلا يحققه على وجه من الوجوه .

ـ أتأذن لي أذن يا عبد الملك ؟

ـ أين تذهب ؟

ـ أعود الى رحالي .

ـ كلا والله لتقيمن عندي بضعة أيام فلي ما قضيت الشوق منك .

ـ أتريد أن تحجرني عن رحالي لئلا أخرج لهم اليك ؟

ـ لا والله لأدعك تذهب اليهم حيثما تشاء .

ـ حين لا يكون بينك وبين الكوفة الا قليل ؟

ـ لا ترع .. ستقيم في هذا المكان ما بقيت معنا ، ولن نبرحه الا بعد أن تعاودنا فما رأيك ؟

فاطرق مصعب قليلا كأنه يفكر فيما سمع ثم قال :

ـ لا بأس اذن .

ـ جزاك الله خيرا يا أخي . من يدري لعلنا نستطيع غدا أن نتفق على شيء وصفق عبد الملك فدخل بعض رجاله فأمرهم أن يدعوا له محمد بن مروان .

فلما حضر قال له :

ـ هذا ابن عمك مصعب بن الزبير قد عهدت به اليك لتنزله معك وتكرمه جهدك . واكتموا حقيقته عن الجميع وأوهموا لهم أنه رسول مصعب .

ـ سأفعل يا أمير المؤمنين .

ـ اذهب يا مصعب مع محمد وسنلقى غدا ان شاء الله .

* * *

وقضى مصعب ثلاث ليال في معسكر عبد الملك كان يجالسه فيها صباحا ومساء ، ولا يفترقان الا عند القيلولة ظهرا وعندما يأويان للنوم ليلا . وكان يحضر مجلسهما الأمراء الثلاثة محمد وخالد وعبد الله أو بعضهم ولكن كثيرا ما كانا ينفردان في المجلس فلا يحضره معهما أحد .

وكان جل حديثهما يدور حول ذكرياتها القديمة في مدينة رسول الله ، منذ كانا طفلين الى أن بلغا مبلغ الرجال ، وحول معارفهما من الناس في تلك الحقبة الغالية من حياتهما من بقي منهم ومن مات .

وكانا في ذلك كأنما يمتحان من نبع واحد على التعاقب بينهما ، فاذا تذكر أحدهما أمرا من الأمور أو شخصا من الأشخاص انبرى الآخر يذكر من التفاصيل ما يكمل به الذكرى التي استحضرها صاحبه . وكانا يجدان لذلك لذة عظيمة كأنما يستعيدان فيه عزيزة من عهود الصبا وأيام الشباب .

ببی فابر

وتكرر النقاش بينهما حول المهمة التي حضر مصعب من اجلها من وجوه شتى وروايا مختلفة غير انه كان ينهى بينهما دائما بالخلاف .

وذات مرة قال له عبد الملك

ـ والله يا اخي اني لشديد الحرص على الا تنصرف من عندي الا على شيء. ولكنك تسد الأبواب كلها ما خلا بابا واحدا لا سبيل الى ولوجه .

فاجابه مصعب :

ـ بل هو الباب الوحيد الذي يمكن ان تلجه على سواء ليس لا غضاضة فيه علي ولا عليك حتى يجعل الله لنا مخرجا من الامر كله .

قال عبد الملك .

ـ اني مصارحك الآن بامر لا يسعني ان اخفيه عليك فعدني الا تثور غضبا اذا سمعته .

ـ لك على ذلك .

ـ انا لسنا سواء يا مصعب في الرجال والعدة . عندي اهل الشام وهم اطوع لي من بناني وليس فيهم خوان ولا منافق ، وعندك اهل العراق وهم اهل شقاق ونفاق ، فالنصر مضمون لي عليك .

ـ كلا ان النصر بيد الله ، ورجالي ليسوا كما ذكرت .

ـ ان احوال عبد الله اعرف بهم منك حين قال لوفدهم اليه :

وددت لو ان لي بكل عشرة منكم رجلا من اهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

ـ ليست الحرب بالاقوال ياعبد الملك ولكن بالفعال .

ـ اعلم اذن ان كثيرا من وجوه اصحابك قد كاتبوني يعرضون انضمامهم الي .

ـ ان فعلوا فسيخونونك كما خانوني . ولي منهم عين بالمخلصين الثابتين وهم كثير .

ـ ان شئت يا مصعب سميتهم لك واطلعتك على رسائلهم لتصدقني .

ـ كلا لا ينبغي لك ان تفعل ، ولا ينبغي لي ان اسمع . ليس ذلك من المروءة يا عبد الملك .

وفي اليوم الثالث حين تهيأ مصعب للمسير وخلا به عبد الملك ليودعه ناشده مصعب ان يستجيب لدعوة السلام ينقلب الى الشام ذلك العام عسى ان يجعل الله لهما مخرجا في مستقبل الايام . وتأثر عبد الملك من كلمات صديقه التي قالها في صدق واخلاص حتى ترقرق الدمع في عينيه فنوهم مصعب انه سيجيبه الى ما طلب .

ولكن عبد الملك لم يرد على ان الطف له القول ووعده بالنظر في هذا الامر .

وتعانق الصديقان لحظة اطلقا فيها لدموعهما العنان ثم تجلدا ومسح كل منهما دمعه . قال عبد الملك وهو يشيعه الى باب الخيمة .

ـ لولا خوفي ان ينكشف سرك يا مصعب لخرجت اشيعك الى بعض الطريق .

فشكره مصعب على بره وتكرمته ثم خرج الى حيث اعد له جواده فركبه وانطلق .

(تمت)